«الفن التشكيلي في المملكة ليس ظاهرة بل بناء واستمرار»

عندما بدأت حركة الفن التشكيلي في الظهور خلال الخمسينات الميلادية في المملكة العربية السعودية كانت تقوم على جهود وزارة المعارف التي كانت قد بدأت بالاهتمام بمادة التربية الفنية. ولا شك أن ظهور المواهب أعطى تأشيرة لإرسال البعثات خارج المملكة لدراسة الفن، وكانت أولىَ البعثات منذ أوائل الستينات لدراسة الفن التشكيلي أو أحد فروعه ومازالت حتى زمن قريب.

ومنذ الستينات وحتى الآن أخذت حركة الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية مساراً جاداً وطموحاً فتأسس معهد التربية الفنية وتأهل مدرسو مادة التربية الفنية وقامت الجامعات بافتتاح أقسام للتربية الفنية واتبعت الطلبة للدراسة في الخارج. إذن والفن التشكيلي يتجه بشكل تصاعدي إيجابي للإسهام وبه فقد أصبح واقعاً ملموساً له حضوره الواضح على المستوى المحلي ثم العربي فيما بعد.

والجهات الرسمية تقوم بجهد في سبيل تحقيق هذه الاستمرارية ولم تعد هذه الحركة (ظاهرة) كما وصفها زميلنا يوسف أبو العز.

نعم لم تعد حركة الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية «ظاهرة» فالظاهرة قد تتمثل في طقس أو تقليعة جديدة لا تعيش طويلاً. والظاهرة من ظهور الشيء بعد اختفائه ولأن الفن التشكيلي في المملكة ليس كحركة بحر مدّ وجزر أو كفصل من فصول السنة، لذا فاستخدام الزميل «أبو العز» كلمة ظاهرة غير دقيقة، بل وغير صحيح لأن الفن التشكيلي بعيش حالة من التطور والنمو والتصاعد سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي أو التقني.

على المستوى الرسمي يحظى الفن التشكيلي باهتمام الجهات القائمة عليه من رعاية فخصصت له الرئاسة العامة لرعاية الشباب قسماً أصبح فيما بعد (إدارة الفنون التشكيلية) وبدأت الرئاسة تشارك بأعمال الفنانين في المعارض والمناسبات العربية والدولية.

وحقق الفنان فيما بعد مكانة ملفتة سواء بمستوى أعماله التي تتمشى مع التطور الفني الذي تعيشه بقية البلاد العربية أو حتى التقنية. والتميز الذي يتفرَّد به عدد من الفنانين السعوديين.

أما جمعية الثقافة والفنون فقد خصصت هي الأخرى أقساماً للفنون التشكيلية في كل فروعها إضافة إلى لجنة الفنون التشكيلية بالمركز الرئيسي، وقامت دار الفنون السعودية بجهد معروف واستضافت معارض محلية وعربية وأجنبية بقاعتها، وتتطور العملية إلى قيام مؤسسات فنية وصالات عرض في كافة مناطق البلاد.

إذن فالعملية لم تعد ظاهرة فهي تنمو وتتطور.

أما معهد التربية الفنية فقد تخرج منه منذ أكثر من عشرين عاماً أجيال عديدة من مدرسين وفنانين أثروا الساحة التشكيلية بعطائهم ومشاركاتهم ومثله أقسام التربية الفنية في عدد من الجامعات المحلية.

الإعلام أعطى الفن التشكيلي أهمية مواكبة لتطوره فخصصت عدد من الصحف المحلية (اليوم، الرياض، الجزيرة) صفحات أسبوعية وخاصّة بالفن التشكيلي، وقامت فيما بعد (روشان للفنون الجميلة) بإصدار مجلة (فن) التي تعنى بالفن التشكيلي رأس تحريرها الزميل أبو العز نفسه. أتكون كل هذه الحيوية وهذا العطاء والحركة التشكيلية في المملكة العربية السعودية ظاهرة؟!

من الطبيعي أن نخالف زميلنا أبو العز في اختياره لهذا اللفظ نحو التشكيل في المملكة فهو على الوجه الأدق بناء واستمرار وواقع يعيش تطوراً واضحاً على كل المستويات.

أما الملاحظة الثانية على مقالة الزميل فهي تناوله للفن التشكيلي، حيث خلط كل الأسماء التي أسهمت بجهد بارز واضح في مسيرة التشكيل في المملكة أو التي مازالت تتحسس مكاناً وتحاول ترسيخ اسم على المستوى المحلي على الأقل.

ثم وفي مجال آخر نلحظ تناقضاً مع كلمة (ظاهرة) إذ اعتبر أن «المرحلة امتداد تراثي للفنان السعودي الذي وصفه بأنه يعمل على استلهام التراث في ممارسته الفنية الحديثة».

الزميل حصر دراسته ما بين ١٩٧٢ ـ ١٩٨٦ والملاحظ أن هذا التاريخ شهد نشاطاً ونمواً على الصعيدين الكمي والكيفي كما قال، لكنه لا يعني أيضاً أن هذا يمكنه أن يصبغ الحركة التشكيلية في المملكة بـ «ظاهرة» وقد يكون موضوعه أكثر إقناعاً لو اختار له (الفن التشكيلي الحديث في المملكة ١٩٧٢ ـ ١٩٨٦ م) بحيث يحدد بفترة معينة.

والملاحظ أيضاً أنه أغفل عدداً من الأنشطة خاصة خلال الأعوام الأخيرة واتضح أن متابعته انحصرت فقط على المنطقة الغربية التي كان يقيم ويعمل بها. أما ما جاء عن المناطق الأخرى فكان على ما يبدو حسبما يتاح له من متابعات صحفية سريعة ومتفرقة دونما تدقيق.

لقد أشار أنه ستستبعد الدراسة من الاهتمام معارض الفنانين العرب والأجانب التي أقيمت في المملكة رغم ما لعبته من دور في تنشيط (الظاهرة) كما يقول ورفد التجربة المحلية بالخبرات.. إلا أننا وليس تقليلاً من قيمة هذه المعارض لا نرى هذه المعارض قد لعبت الدور الذي أعطاه إياها وكنت أرجو أن يذكر ما هي هذه المعارض التي أقيمت في المنطقة الشرقية مثلاً؟

رجع الزميل إلى بعض المصادر الناقصة التي لم تعتبر «الحركة التشكيلية السعودية» وهو هنا لم يضف أي جديد عندما رجع إلى كتاب د. عفيف بهنسي.

أما كتاب الفن التشكيلي في دول مجلس التعاون للفنان عبد الرسول سلمان فقد كان في بعض محتواه عن الفن التشكيلي في المملكة غير دقيق.

والأهم من ذلك أن يكون جهد الزميل أبو العز قد انحصر في متابعة أكثر دقة فهو المتواجد في المملكة. وكان من الأجدى أن يعتمد على مصادره مباشرة كما فعل مع قلة جداً من الفنانين في بعض أجزاء الدراسة.

لقد ارتكز أبو العز على ثلاثة محاور في قراءة البنية السطحية «للظاهرة» كما يريد:

المدرسي، التراثي المحلي، التجريدي.

ووضع تحت إطار المحور المدرسي [المدرسة الواقعية ـ الأكاديمية] ثم المدرسة الانطباعية ـ التأثيرية فالمدرسة السيريالية ثم المدرسة التكعيبية.

المحور التراثي/المحلي. فقد رأى تميز ثلاثة اتجاهات رئيسية هي اتجاه تميز به عبد الحليم رضوى «الاتجاه التركيبي».

اتجاه يستلهم التراث بحس تجريدي.

اتجاه يستفيد من تجارب الفنانين العرب.

والمحور الثالث والذي أسماه المحور التجريدي لم يبلوره ضمن المحور المدرسي كما يقول، رغم أنها تبلورت

كمدرسة عالمية، لكنه وقع في خلط هذا المفهوم بين مجموعة الفنانين الذين وضعهم في إطاره كما هو عبد الجبار اليحيا، فيصل سمرة، عبد الإله الخيال، محمد الصقعبي، حسن عبد المجيد، أحمد الغامدي!!

أما ما يتعلق بالمحور التراثي/المحلي فنلحظ أن أغلب الأسماء التي ضمنها الاتجاه التركيبي هي التي تستفيد من تجارب الفنانين العرب، ولم يكن هناك من سبب أن يضع تحت لواء ما أسماه «اتجاهاً» تميز به عبد الحليم رضوى مجموعة من الأسماء لم تصطبغ بصاحب الاتجاه عدا طه صبان.

ثم إنه ليس هناك ما يدعو لاستخدام مصطلح «يستفيد» لأن التجربة نحو تحديد سمة عربية للوحة هي جهد كل الفنانين العرب وليست محصورة بين أحد، والفنانون جميعاً يعملون جاهدين لإيجاد صيغة ضمن التجربة العربية ككل، بل وتميز بعضهم في بعض معطياتها.

وثمة ملاحظة هي أن الزميل اتكأ على أعمال قليلة جداً إن لم يكن على عمل واحد للفنان الواحد أحياناً.

ثم إنه غالباً ما يرجع أعمال كثيرٍ من الفنانين إلى فنانين آخرين من العرب أو الأجانب في الوقت الذي لا نلحظ هذا التأثير الذي أشار إليه. وهو قد عاد بأعمال ناصر الموسى إلى وجيه نحله وعبد الإله الخيال إلى وليم دي كوننج ومحمد الصعقبي إلى شاكر حسن آل سعيد وفاروق حسني وفهد الحجيلان إلى نولده وحمزة باجوده إلى ضياء العزاوي وعبد الله الشيخ إلى جواد سليم.

لكنه لا بد أيضاً من الإشارة إلى أن عبد الله الشيخ قد دَرَسَ على يد الفنان جواد سليم ويمكن الموافقة على ذلك فقط.

هناك تجارب تناولها بعض الفنانين لم تمثل عمقاً في تجربتهم الفنية بحيث تركوها ليبحثوا في اتجاهات أكثر تطوراً ومواكبة للتجربة في العالم أجمع، ولم يكن هناك داعٍ لتناولها لأنها تمثل جزءاً من حياة الفنان الخاصة وليس ضمن تجربة شاملة للشكل في المملكة.

هذه ملاحظات سريعة على دراسة الزميل يوسف أبو العز (ظاهرة الفن التشكيلي الحديث في المملكة العربية السعودية) من واحد ممن يتابعون نمو وتطور الحركة التشكيلية المحلية وأحد من يمارسونها.

عبدالرحمن السليمان
الدمام/السعودية